

# المشكلات

الخروج الثاني من المجلد الثامن عشر بعد المئة

٧ جادى الثاني سنة ١٤٧٠

١٠٠٠

## فيلسوف والالم

لقد كثر جميل صليبا

في حديثه عن الفلاسفة وفيلسوف المعمرين (تشرين) صورة ذات قسمين، يمثل أحدهما بدءاً من النساء في أوضاع مختلفة، اختلطت أطلالهن فبدت طيهن علامات الحزن والضيق والبأس، ويمثل الثاني عدداً من النعاج في أوضاع موازية لأوضاع النساء، اختلطت خرافها فظهرت عليها دلائل الألم والهم والهمز والقهر. وفي كل قسم من هذين القسمين معالم نجية ورموز لحيوية. إذا تأملنا هذه الرموز وهذه الاشارات وجدنا تحت كل صورة السانية صورة حيوانية متشابهة لها، ورأينا الحيوان والانسان يتشابهان في الاحساس بالألم ويختلفان في التصبر عنه.

إن هذه التسوية الرمزية تروحي بكثير من المعاني، وتغير إلى كثير من الآراء الفلسفية فهي تدل أولاً على أن الألم ظاهرة طبيعية مقارنة لوجود الانسان والحيوان، وهي تدل ثانياً على أن شدة الشعور المدركة عند الحيوان تزيد شعوره بالألم. فالحيوان لا يحس بالألم، والنسب يكاد يفرق بينهم الاحساس به، أما الحيوان فإن درجات شعوره بالألم متفاوتة، فكما كان أرقى كان شعوره بالألم أشد، وكما كان أدنى كان شعوره بالألم أخف. وأما الانسان فهو أكثر الحيوانات شعوراً بالألم فهو مدركه العقلية، وهو فرضنا أن هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من المعقول، ونطه في الوجود شبيه بالخط الذي نحن

فيه سببان شعوره بالألم أشد من شعور الإنسان به . فكأن الألم في الشعور حاداً ،  
وإن شاء الله تعالى ، وكان العلم سبب من أسباب الشقاء .

ثم إن سورة ( تيسين ) هذه ترمز أيضاً إلى مدح النفساني الذي يفتخر بولده  
صاحبه بولد الحزن والألم والشقاء ، والجهل بولد اتقناعه والرضى بولد اتقناعه .  
أمام هذه السورة الفنية دون أن تتساءل : ما هي أسباب الألم ، ولماذا الألم ، من ينام  
الإنسان أكثر مما يتألم الحيوان . ما هي علاقة الألم بالألم ، هل يرتفع الألم بزيادة النفس  
والثقافة . ثم إذا كان العلم يثقيبنا فهل من الخير لنا أن نعلم ، أم نحن مدينون لأن نجهل  
في الجهل . وإذا لنقل الثقلات على النور . ثم كيف السبيل إلى شفائه لمن هو الألم ، وهل  
يستطيع الإنسان أن يتقاه نفسه من برائن العقاب . ما هو الخير وما هو الشر ، وما هي  
شروط السعادة ؟

هذه أسئلة ظالمها ردها الفلاسفة ، وحاولوا أن يجدوا لها حلاً ، وهي من مقصورة  
عليهم وعدم وإقناعي أسئلة ردها كل الساق في كثير من مواضعها . فإذا أخذت المرض  
عليه مسخ من أماني قلبه لماذا يتألم . وإذا ذرقه حبيبه وشعر بالملال الضعيف بعده ود  
لو يفارق الحياة . وإذا مات له من زخات الدنيا في وجهه . فالتفتي بعدي ، والحلابة ، والشيخ  
يبسح حكته إشابهه ، والتقمير يصرخ يارباه حتى مت ، تحمك الطرس في " رنبح العرش على رأسي  
والغني يقول لقد أوفر المال بألم حياتي فأصعدني في سبائي وشيخو حتى حتى جاني عن صحتي  
جناية الشرك على الورود . ويكفي أن يدخل الإنسان مستشفى من المستشفيات ، أو ماجاً من  
ملاحي ، التهجرة ، أو سجناً من السجون المطلقة ، أو بيتاً من بيوت القضاة المصممين ، أو  
سجناً من أمامم الكبيرة التي سخرت الإنسان لبلالة يشاهد الأناشيء السذاب وصنوقاً  
من الألم والشقاء . فالإنسان يسعى جهده طيلة حياته تحقوقاً بالمناهب والمصالح ، وطاية  
ما يحصل عليه بعد هذا العناء لنقول أن يحافظ على حياته الثمينة ، بينا الخريف سائر أمام عينيه في  
كل لحظة وفي كل فعل . أفلا يدفعه هذا كله إلى الثورة والفرود ، أفلا يدفعه إلى البحث عن  
أسباب ألمه . لماذا يتألم الإنسان ، ولماذا يسحق ، ولماذا لا يتكبر حياته لذة كلها  
وسدانة كلها ، أجل ، لماذا ، لماذا — هذه قمة ثورية لا يفرحها إلا الإنسان ، هذه سرحة  
سماوية لا تنبث إلا من أماني القلب . أليس الإنسان شيئاً ( بآرديب ) إنشائه التي  
ذكرته الأساطير ، يشي في طريق الحياة الوحش . حتى يلتقي في أحد منحوماتها بذلك  
( الأسفكس ) المنجيب الذي يطلب منه الجواب عن لغزده الشوم ؟ فإذا حل هذا  
الغز نجح من الموت ، وإذا عجز عن حله وقع في الهاوية .

الالم في نظر الشعراء

لقد حلوا شعورهم في المأساة إذ يشعروا هذا المفزع وأن يقينوا انهم في لحظة انصراف  
فثار بعضهم على الألم في شعرهم المشهور لتساقه التي خلقوا له

فن الذين نادوا في الألم ثورة عبثية أو الجلاء المحرري ، وهم الخيام والشاعر  
الانكليزي بيرون .

فأبو العلاء شعر بأن المظهر الألم في كل شيء ، وشبهه الناس بركاب سفينة تتقاذفها  
أمواج البحر ، وقال في قصيدته :  
يا من يرى البحر في كل شيء

يا من يرى البحر في كل شيء

وعمر الخيام رأى في المأساة أعقاب ، وأن العنك هو اللاب بقاء ، ولم يجد الحياة ،  
وأفاض بالنتيجة هيب ، وقال أن حصول الأسنان منها لم يكن إلا الألم وطالب النفس ،  
فطرب لمن خرج منها أو لم يحيي إليها .

وبيرون تارة على الألم ثورة عبثية فقال في خطابه لأبليس على لسان قابيل : لم وجدت ،  
ولماذا شئت ، ولم أطاق التساقه بكل موجود ، يجب أن يكون الخالق هو الآخر شيئاً  
ما دام قد خلق هذه الكائنات الجائسة .

ومن الذين أذعنوا للألم واستسلموا الصروف الحياة الشاعر الفرنسي (دوفيني) فهو  
يزفر زفرة مبرقة عذبة هي أقرب ما تكون إلى زفرة المختصر . ثم تتعثر زفره هذه  
بالأعاني والاستعارات المبرجة

ومسجد أيضاً ( أنقرة دي موسيه ) الذي أعلن أن الانسان يتعلم والألم يعلمه وأن  
الإنسان لا يعيش حقيقته تساً إلا إذا تألم ، وأن لا شيء كالآلام العظمى يجتهد شعوره  
تلك هي آراء بعض الشعراء . وذلك هو سر قدهم من الألم . لقد رقدوا في الألم موتاً  
ثنائياً في وجه الموت ، ووجه الذي اذعان واستسلام ، إلا أن آراءهم لا تتوقف  
مذهباً فلسفياً محكم الأجزاء ، فحق التركيب ، وإنما هي معانٍ تخيلوها فغاب عنها شعورهم  
وأوا أمعة النور ، لكنهم لم يستضيئوا بها ، وأدركوا الشواهد والنتائج ، لكنهم لم  
يكشفوا عن الحقيقة ولا قبضوا على كلمة السر ، وإنما بدأ الدائم لهم مسرحاً من الصور  
والألغاز ليس بين أجزاء ارتباط ، ولا بين طراهره ترتيب ، وكل ما جاءهم الاستفسار  
في طريقهم وألقى عليهم لغزاً المعجب لعجزوا عن حله ، ولوقفوا فيما وقع فيه ذرهم من  
الاضطراب والشك

سراً قد يحتمل وأمرهم منضم قول على كثرنا للحق اصعاد  
لترك إننا مؤلفا لشعراء، إهم في كمال والتلويح من اللامسة أن  
بوضوحنا هذا السر، أن الفلاسفة كما يقولون هي العلم بمخالفات الأشياء، فاللام في  
لشر الفلاسفة، ما هي أسبابه وما هي فائته ؟

### ٣ - اللام في نظر الفلاسفة

إن مسألة اللام في نظر الفلاسفة وجيهة : الأول هو تعليل اللام ، والثاني هو التحرر  
منها ، وسنرى تعليل اللام أمرك حقيقته وفهم أسبابه ، ومعرفة فائته . ومضى التحرر من  
اللام انكشف من طريقة عملية للخروج منه ، ومعرفة الصلوك التي يجب علينا ان نتبعها به  
عند مواجهتنا بياه أو شعورنا به .

إن كل مسألة من هاتين المسألتين متصلة بالأخرى ، لأنك لا تستطيع ان تهدي الى  
طريق التحرر من اللام إلا اذا عرفت أسبابه ، كما أنك لا تستطيع ان تعرف كيف يخرج  
منه إلا اذا عرفت حقيقة صلوك الانسان ، وهل هو ميسر أو غير . فإذا تبين لك ان  
الانسان ميسر حكمت جازماً بأنه لا حيلة له في الثورة على اللام ، وان شاء أو أكره مدفوع  
بحكم الاضطرار الى مصيره المحترم ، واما تبين لك ان لارادة الانسان تأثيراً في توجيه  
صلوكه حكمت جازماً أيضاً بأن في وسعه أن يتجنب بعض أسباب الشقاء . فمن الضروري  
إذن ان نبحث عن أسباب اللام وشروطه قبل ان نبحث في امكان التحرر منه والتغلب عليه  
إن أقدم المذاهب الفلسفية التي نجد فيها حلاً لمشكلة اللام هي الابيقورية والبيقونية .  
فقد حاول أصحاب هذين المذاهبين ان يعللوا لنا حدوث اللام ، ويبيسوا لنا فائته ويوضحوا  
الى طريق الخلاص منه .

١ - في الابيقورية - ماذا يقول الابيقوريون ؟ يقولون إن الله سبحانه وتعالى  
الانسان ، وهي وحده مصدر الخير ، أما اللام فهو الشر . والكل من كل الحكيم في نظر  
( الابيقوريون ) من ممكن آلامه بتذكر اللذات القاضية . وتأمل سادات المشقة ، فيرفض  
لذة عاجلة كثيراً تستمتع للمآ أكبر منها ، ويشعر أنها طاهر لآله يستمتع لآله أكبر منه . إن  
اللام ينشأ عن كثرة الحاجات غير للانسان اذن ان يقلل من حاجاته ، وأن يطرد من أفكاره  
كل ما يبعث في اللام ، وعلى قدر ما تتجنب هذه الأفكار المتضادة والمخالفة للأحكام  
الملائمة تكون سعادته . وسبيل ذلك بساطة العيش والاعتدال ، واجتناب الفسار ، وهدوه  
أبال ، وللأسفة الشامة في الرغبات حتى لا تدفع بنا في طريق الضلال . وأخيراً ما كان

ايقوروس يصف نفس الحكيم يهدوه البحر او السياه الممانيه ، بر الحماكيه ، وبتاوه هو الذي يكتفي بالنظير من الطير والماء ، ويصبح معتاداً ، يمشي في البحر ، وبتاوه هو بالصدر ، ويحدد اللذة في احتقار اللذة ، وبتاوه من خير ان يمشي ، لان الحماكيه بالصدر في زياده آلامه واحزانه . وهذا كله حق ، لان اللذة من الصبر قد يغيره في بعض الاحوال من الآلام المذنبه ، ولكن كيف يستطيع الانسان ان يتغلب على الآلام المذنبه ، كيف يستطيع التغلب على الموت ؟ يقول ( ايقوروس ) : اننا نختلفنا من الموت ، فكيف نتغلبوا به ابداً ، فادمتهم في قيد الحياة ، لاننا نعتزق بالموت ، وبتاوه قد تم الحياه في القبر ، وفي هذا يقول كما تقول مسكنات كاذبه لثقتنا وعارنا ، او انك من القبر ترفع من هذه المسكنات . ان نفسي لا تكن ككفون البحر ، لاننا نعلمو كفساده انسان في نهايه هيبه بحر يتلاطم الامواج ، او بسياه شلبيه بالغيرم . وهذه المسكنات ، بقريه لا تزيدني إلا قنفاً واضطراباً .

ب - عجز الروافيه كما - ثم ماذا يقول الروافيهون ؟ انهم يقولون عليك ان تقوم أولاً بواجبك لان قيامك بالواجب هو وحده في تناول نفسك وهو الذي يحرر نفسك من الألم ، واياك ان تفكر في غير الواجب ، في تلمس نفسك دائماً ، وانخضع القانون العام الذي يسير الكائنات كلها بدون حب . نعم بدون حب . لماذا ؟ - لاننا اجزاء مجعولة في دواليب الكون . قد تكون الحوادث التي تمر بنا شراً ، وقد تكون خيراً ، ولكن هذا الامر لا يهمنا ابداً ، لان المهم قبل كل شيء ان يكون في الوجود نظام ، وان كان نظام الوجود يقتضي ان يتألم بعض الناس ، ويخرج بعضهم الآخر ، فما على الانسان إلا ان يتقبل ذلك كله بنفس راضيه مرضيه . لقد كان ( ابيكتيت ) عدلاً رفيقاً وكان سيخس يظنه كثيراً . فلما لوى له رجله قال له ( ابيكتيت ) في عدوه : ( متكسر رجلي ) ، فلما تكسرت رجله قال في غير جرح : ( قلت لك انك متكسر في رجلي ) . وهذا المثال يبين على ان السعادة في نظر الروافيهين انها تعتمد على قوة المقاومة ، وما يحدث في الحياه من آلام ليس حزيناً تمرين وانما فصل به ال ضبط النفس وكبح جماحها . لنرى بنا الآلام ، ولنفس حياتنا كما نعلم أصبح الصخر الصخرة الصاه اواسية على انسان ، ان سعادتنا هي ان نلتصق بنظام الكون وان نعتقد أننا جزء من اجزائه المركبه بعضها على بعض ، وان تقبول بهدوه وثبات ونجد ما أنت أيتها الالم لا تفتة خرماء .

والسكي ألا ترى سعي أيتها الفارسي الكرمي ان في هذا الثبات ، وفي هذا التجملد



ولكن هل استطاع العلماء أن يكتشفوا الحفرة التي هي أصل الحياة البشرية  
 أدنى التقدم البشري إلى اعتماد الناس في تقدمهم من غير أن يكونوا قادرين على  
 المرء من الثمور بالأم . وقد يكون كذلك عندنا في بعض النواحي .  
 أو يتوهم بقائه وهو رائد عند ويمتد في القمم من دون أن يكون  
 والتقدم بعمارة لطيفة . قال : « عرفت فتاة سقوية جارية في إحدى القرى  
 وأنها ترف كل يوم إلى حليبها الحليبي فطابت رفقاً من حليبها  
 الأبيض ، وأكلها النبي منحة مستقيمة . فقلت : نفسها من أي شيء  
 البار . فإذا جاء الماء ولم يأخذ الحليب المنضوخ في الماء . فقلت :  
 تعود إلى ذلك في اليوم الثاني عند منع نسيم قائم في حليبها .  
 تزل كذلك ترح في الصباح وتخرج في المساء . أتري ترون . كآمل  
 واجبة باكية ، فتنتقل من يمين شوم ، إلى يمينه جفن . حتى  
 نسي هذه الفتاة المسكينة ، هي نفسي في كل عصر .  
 العصور الخالية ، وتنتظر دائماً تحقيق مثلها الأعلى . لقد مررت  
 وهي تقول سيحى ، الخطيب غداً ، وكل جيل من الأجيال يرندي ثوبه  
 هذا الخطيب المحذور لم يجيء حتى الآن .

لنفرض الآن أن التطور ظل سائراً قديماً إلى الأمام حتى وصل إلى نهاية  
 أن البشرية استطاعت بعد جهود طويلة أن تتفاد على جميع العقبات  
 فرد حرية الاستمتاع بلذات الحياة فهي يقع الأزمات بدأت ،  
 أسباب التدهور ، ومماثلة الصحة والرفاهية . إن الاتصال بين  
 من ذلك . إنه ينظر دائماً إلى فوق . وكلما بلغ شرفه من التقدم  
 حياته الواقعية . وهذا الميل إلى التحسين الطبيعي ، هذا  
 هذا النزوع إلى ما وراء الواقع ، لا يفسد عند حد . ولو أدى  
 وقال كل ما ينبغي ، وانقلبت أحواله كعب إلى .  
 والصحة والجمال والقوة ، ووسع حركته ينادي دائماً من  
 الحالة حالة ثانية أرقى منها . وما دام الإنسان لم يترك  
 بالحرمات . وأي ألم هو أعظم من ألم الحرمان . لا  
 والتعذر . إنه لم أسمع ، لا بل هو ألم منكم .  
 متخيل إذا أصبح واقياً لم يكتف الألمان به ، بل طمح دائماً

الأخرى سخطي ، وهكذا تدريك . إن حصة كنهه الجنة الوضعية التي ليس وراءها شيء هي من أودية الدموع ، وكهف من كهوف الخزل واليأس . وأي معنى للحياة في هذا العالم الذي لا يعرف إلا سائياً مثل أثنى . إن مصير الإنسان فيها مظلّم . لا بل إن حياة الإنسان تلتك الدمية المستترة بين السماء والأرض . تتهرء وترقص ، وتتخط ، وتقاتل وتموت حتى يدركها الموت فتوارى في النكد فلا ي شيء هذا التغبط ، ولذي شيء وهذا الكفاح والتمراك . ثم لأي شيء ينزل الإنسان على وجه الأرض هذه المأساة التي لا نهاية لصلوها إلا أن كل فلسفة تريد أن توضح لنا أسباب الألم دون أن تبين لنا غاية هي فلسفة الفسفة ، لا بل هي برق قلب وروم بطل . فالثورة على الألم توم ، وتغدير الآلام بجميع المستنات الطبية كخداع وعجز ، واحتقار الحياة ، والأمراض عنها والزهديها كذبي ورياء . والاعتماد على الألم وحده لتحرير الإنسان من الألم قويه .

١ - - - - - المشاهير في - - - - - فأنت ترى أن هذه المذاهب الفلسفية لم تبص من حقيقة الأمر . بل تستنج من ذلك أنه يجب حل الإنسان أن يذعن للشقاء ، وأن يقطع كل رجاء ؟ هل هذا ما فعله بعض المشاهير الذين زعموا أن الألم أساس الحياة . فما قاله الفيلسوف الألماني ( شوبنهاور ) أن الإرادة هي الحقيقة النهائية لكل شيء ، وهي مصير البشر . فالعلم شر لأن الإرادة تتسلط دائماً إلى أعلى مما تنقربه ، فإذا تحققت لنا رغبة من الرغبات وجدنا إلى جانبها عشرات الرغبات قد أعوزها التحقق . والعالم شر أيضاً لأن في كل فرد منا حوصاً من الألم يستحيل أن يغفل طرفاً ، إنما لا يربح من صدورنا حياة من الألم إلا لتحل مكانه حياة أخرى . والألم هو الدافع الأساسي لكل فعل . وهو وحده إيجابياً ، أما اللذة فهي سلبية لأنها لا تحصل للنفس إلا عند خروجها من الألم .

والعالم شر أيضاً لأن إرضاء الحاجات لا يتكافأ يسمح للإنسان بشيء من الراحة حتى يشعر بالثبات . وكل ما عدا الإنسان في سلم الارتفاع ازداد ما بناه من ألم . وفي ازداد قسوة في المعرفة ازداد شدة آلامه . وفي حياة شر أخيراً لأنها قتال لا يتقطع ، فأينما توجهت ألفتك في الأذى ، إننا لا ومداخلة وعذاباً . إنك لو أخذت أكبر المتفائلين إلى سلاجحة الأرض ، وغرفت في البراعة ، وأوكلت الصيد ومراديت الفقراء ، وساحات الحرب تعلم هذا المتفائل السامع أن أقدمه لأننا أروناً مبتلة بالدموع . فنحن نساء إذا اخترنا الذم ، نساء إذا اخترنا الذم . وما الحياة إلا مأساة صبيكية وملهات فاجسة . يقول شوبنهاور : يدعى الألم في منزل قطن أو مهنماً آخر ، فنظل منذ تلك الساعة نذهب إلى مهنمة كل يوم فننقصي فيه عشر ساعات أو أكثر تؤدي اثناعشر عملاً آلياً لا يتخير .

وأنت مضطر إلى هذا العمل لكي تشتري به أنفاسك التي ترضي به إرادة الحياة . فليس التساؤل إذن أمام هذه المصائب إلا سخرية من سخريات الدهر .

إن الإيمان يقربنا بالآمال ولا يرعى لنا عهداً ، ويلوح لنا بالسعادة ثم يبتعدنا إلى سواها في النقاء . وما أشبه الحياة كما يقول ( شوبنهاور ) بمبلغ من المال تدفعه في حصارهما فتقوداً صغيرة ، فلا تلم به إيصالاً إلا بعد الانتهاء من دفعه . أما التقود التي تدفعها فهي أيام حياتك وأما الأيصال الذي يعطى لك في النهاية فهو الموت .

إن هذه الآراء التي جاء بها ( شوبنهاور ) قريبة من آراء الشعراء المتشائمين . فهي ترجع أسباب الألم إلى إرادة الحياة ، أي إلى تلك العاطفة العمياء التي لا تعرف الألم . ولو كانت هذه الإرادة حائلة لأدركت أن عملها لا يعطي نفعاً .

ولكن كيف السبيل إلى الخلاص من الألم ، وكيف السبيل إلى الخروج منه . إن المتشائمين الراسخين في تشاؤمهم لا يضمنون هذا السؤال ، لأن في مجرد وضعه مخالفة لأصول مذهبهم . فكيف تقول إن الوجود شر لا حيلة لنا في اجتنابه ، ثم تفكر به ذلك في إمكان الخلاص منه . إن إرادة الخلاص من الألم تدل على الإيمان بالتساؤل . وكل فيلسوف متشائم يرضخ في النقاء من الألم يناقض نفسه بنفسه . ثم لماذا هذا التشاؤم من الحياة . أليس في التشاؤم كثير من الأناية . إن تسجيل شرور العالم في دفتر الإنسانية لا يستلزم الوقوف منها موقفاً سلبياً لأن هذا الموقف السلبى لا ينعج إلا في زيادة تطير المحقق بالإنسان . لماذا تلقي تيمة ما يحس به من سخط ومن غضب على الكون نفسه ؟ إننا نستطيع أن نبتسم ضد مواجهة كل خطر ، ونستطيع أن نعلم أن الموت خير عند اشتداد كل ملة . إن هذا الرجاء هو خير للنخر في كل شدة ، لا بل هو خير من لنا على تحمل مشاق الحياة . ولو أئمتنا النظر في ألوان الحياة لوجدناها أقل ظلمة منا ونسبها به ( شوبنهاور ) أن أحماء الأجسام يستمتعون بكثير من اللذات المسائية . كما أن النحاة القبول يدركون كثيراً من اللذات العقلية . ففي ضياء الشمس ، ورائحة الزرد ، وفريد الطير ومشاهد الطبيعة تفحات من السعادة ، كما أن في تفهم الحقيقة وأدراك الجمال تأمل تطير دلائل على اللذة . إنه من حق الرأي كما يقول ( كارليل ) أن نعلن انشمس لأنها لا تشعل لنا السجائر . ومع ذلك فلعلنا نعلمها لنا لو أوتينا الألم والذكاء . وكل أمر من أمور الحياة يمكن أن يكون ساراً وبؤساً حلواً ومرراً سماً . فإذا كنا سعداء وجدنا كل شيء جميلاً ، وإذا كنا حزائنا وجدنا كل شيء قبيحاً .

هـ - (البوديون) وما يقال على مذهب شوينهوريقال أيضاً على مذهب البوذيين. لقد زعم هؤلاء المتشائمون أن هناك قوة عمياء تسير حياة الأفراد دون أن تفكر في مصيرهم وقدرها إن حقيقة الحياة هي الشر والنساء، وأن الوجود هو الألم. ينظن الجاهل أن حروره حقيقي فيحصل ويسعى ويولد هذا السعي في نفسه رغبة وألماً. لذلك كان خير سبيل للتخلص في نظر البوذيين أن يميت الإنسان ما يشعر به من رغبة وأن يحطم وجوده الترددي بقوله (بودا): ألم أيها الإنسان إن الميلاد والشيخوخة والمرض والموت كلها آلام. وسبيل التخلص من الألم أن تميت حياتك الفردية، وتحدد بالوجود الكلي.

ولكن هل في وسع الإنسان أن يميت حياته الفردية، هل في وسعه أن ينسى ذاته، ويضام منزه جفونه. إن كثيرين من الذين أفضت عليهم مصائب الحياة يماجون همومهم بالنوم أنهم يريدون أن يناموا لينسوا كل شيء، يريدون أن يناموا طويلاً حتى لا يروا شيئاً، ولا يسموا شيئاً ولا يحسوا بشيء. هذه الأمنية هي أمنية الكثيرين من الحزائي الجبناء. ولكن لماذا يريد البائس أن ينام؟ انه يريد أن ينام ليسكن آلامه بأحلامه. النوم هدية يلعبها اليأس لئلا يستعيد قواه فاذا استيقظ من نومه عاد الى متابعة آلامه ورغباته. إن البوذوي يريد أن يفارق في بحر (النيرفانا) الهادي، ولكن موقفه من الحياة ليس على التمتع بموقفاً سلبياً خاصاً لأنه كلما أفاق من نومه، ورغب في العودة الى (النيرفانا) باحثاً عن السعادة الوهمية التي يعللها نفسه.

### ٣ - غاية الألم

فأنت ترى أن جميع المذاهب التي عرضنا لذكرها هنا لا تخلف في بعض نواحيها من النقص. إن التخلص من الألم لا يكون باقتصاص الذات، لأن اللذة ليست غاية الحياة. ونحن من جعل غايته من الحياة طلب اللذة عاش في قلق دائم وهمم مقيم. ثم أن التخلص من الألم لا يكون بالزهد في الحياة، ولا بالاعراض عن الدنيا، لأن هذا الاعراض عن اللذات لا يدل إلا على اللذعة والعجز والكذب والتمويه. ثم إن العلم وحده لا يكفي لاسعاد الإنسان، لأنه آلة قد تستعمل للشر كما تستعمل للخير، وأخيراً أن فلسفة النشأوم لا تتبع إلا في زيادة آلامنا وأوصافنا. إننا في حاجة إلى أن نرفع، إننا في حاجة إلى أن نتقاوم إننا في حاجة إلى المعينات ليرهف بها قلوبنا. والناسق من فهم سر الحياة، وعلم أنهم سارحج من اللذات والآلام وخليط من الخير والشر، بل العاقل كل المعادين من علم أن اللذات والآلام أمور إضافية، لا معنى لأحدها إلا إذا نسب إلى الآخر. فقد نجد الألم فيما يسر

تغيرنا، وقد نجد الخير فيما يجده تغيرنا شراً. إن الذين يقولون إن الحياة خير كلها أ كذب من الذين يقولون أنها شر كلها. ولو كانت الحياة خيراً خالياً من الشر، أو شراً خالياً من الخير لما كانت واقعية. إن الحياة الواقعية لادة وشوطة ولطيفة ونخيفة، حلوة ومريرة معاً، أنها تشبه كما يقول (الناطول فرانس) مهرجاً ارتدى ملابس كثيرة الألوان، فهذا براها حراء وذاك براها زرقاه، ولو وضع كل إنسان نفسه في موضع الآخر لرأى اللون الذي يراه. إن ألوان الحياة كثيرة وهي لا تكذب متشاكماً، ولا متفانلاً. ولكن المهم في ذلك كله أن نسمع لجارتنا بأن يكون سعيداً عندما نكون حزائين.

قرأت مرة كتاباً صغيراً يصف فيه صاحبه مدينة فاضلة لا يشمر أهلها بأية لذة ولا بأي ألم. فلما انتهيت من قرأته أحببت الحياة الواقعية، لأن فيها الماء ولذته، وبفساً وحباً، وبأساً وأملًا، أن الحياة مع رجال يناضلون وينتصرون، ويكافحون ويقاومون أسعد من الحياة مع رجال لا حس لهم. ولو خلا الإنسان من الحس لأصبح كالجرار الأصم لا يتلذذ ولا يتألم. إن اللذة الحقيقية الكاملة هي أن تشعر بما يشمر به غيرك فتحبه وتواسيه وتمزيقه. فكما أن الشجرة الطيبة إذا شق قصبها نشرت حولها رائحة طيبة، فكذلك الآلام الناس تقجر من ثمرتها ينابيع الرحمة والفضيلة. إن الذين يريدون أن يزيلوا الشعور بالألم من قفوس الناس يعتبرن فهم كل شيء، لأنهم لا يستطيعون أن يزيلوا الشعور بالألم، ولا إذا أزالوا همه الشعور باللذة.

فببيل الخلاص من الألم هو أن نحب الحياة ونعترف بقيمتها، وأن نتقبل ما هي ونعمل على اصلاحها، وأن نلتم عند مراجعة كل مشكلة من مشكلاتنا. اننا إذا ارتقتنا هذا الموقف الابحاثي من آلام الحياة خففنا كثيراً من وطأتها. وفي ارادتنا الخيرية وشعورنا بالحرية والحب والسكان عرف لنا على ذلك. انني استطيع أن أتصور حالة بشرية يجدها بها الاطباء أدوية لجميع الامراض ومسكنات لجميع الآلام، ووسائل صحية تطيل عمر الانسان، وأستطيع أن أتصور أيضاً طاعة اجتماعية يسودها العدل والانصاف، ويكافح فيها التمييز والفسق والجهل، وتنظم فيها أمور الناس على مياديه التقدم والعدل والرحمة. فهذه المسئلة تخفف بلا ريب وطأة الآلام البشرية، ولكنها لا تستطيع ان تزيلها. والبوسيلة الوحيدة للتغلب على الآلام هي ارادة الانسان، أي شعوره الداخلي بإمكان الخلاص وهزمه داخياً.

إن كثيرين منّا كما قلت يريدون أن يسكوا آلامهم بالنوم أو بالخدرات ، ولكن هذه الخطة السيئة لا تفيدهم شيئاً ، بل تزيد في آلامهم وهمومهم ، ولو واجهوا الآلام بنفس راقية وقريب مطعنة ، وملا واحياتهم بالنشاط والعمل لوجدوا في ذلك خير جزاء لنفوسهم ولكنني أجمع الآن شكوكاً تدب في قلوب القراء . أنهم لا يزالون يقولون لماذا لا تكون الحياة لمدة كذا ، لماذا هذا الضمور بالآلم ألم يكن في وسع الله وهو الخبير المطلق أن يخلق حياة خالية من الآلم . لماذا جعل الحياة تلبية الأضواء ، لماذا جعلها ناقصة وجعلنا فيها غرباء ، الجرباب على ذلك أن العالم لم يخلق للإنسان لتساهي وحده ، بل خلق للإنسان ولقاية أمته من الإنسان . ولكن الإنسان للتساهي يريد بالرغم من تساهي حدوده أن يحيط بالمكان والثلاثية . إنه يتصور التكامل وينظر إلى نفسه فيجدها ناقصة ، أنه يتطلع إلى الخير ، فينظر إلى الأشياء فيجدها محفورة بالشر ، ولولا هذا التطوع إلى الخير والتكامل لما كان الإنسان انساناً . ولو توهمنا أننا أدركنا ذلك كله لكننا كالمحقق المصابين بجنون النظام . إن توهمهم بأنهم قد أدركوا التكامل يذهبهم من العمل . إن شعورهم بأنهم قد بلغوا غاية الجهد يصددهم عن الجهد ، ويخرجهم من الوجود الحقيقي . إن الفعل هو شرط الوجود ، لا بل هو علته الحقيقية ، وهو مقرون بالانفعال أي بالذات والآلام . ولا يبلغ الكون غايته إلا إذا قام كل موجود بالفعل الخاص به . فالشمس تضيء ، والطائر يتردد ، والعمود ينشر الطيب ، والإنسان يبذل الجهد لا ليملك العالم ولكن ليملك نفسه ، ويتغلب بحريته على ضرورات الطبيعة ، ويتحرر بإرادته من قيود الزمان والمكان .

هكذا يتفهم الإنسان مهامه الحياة في صبر وتحمل ، هكذا يرتقى إلى اللامية في فرح ورجاء . هكذا يصبح الكون بالنسبة إليه معاملاً من معاميل الجمال . وفي هذا العمل من الجمال يظهر الإنسان شخصيته الفردية ، ويتحد بالوجود انكلي ، ويشعر بالمدد والرحمة والرأفة والحب . وإذا ما شعر الإنسان بالحب قلبه لفته إلى شرب ، وأدرك أن في كل طرف انتصاراً على الشقاء . فإذا أردنا أن نكون سعداء فلنخرج من قيود الحياة الضيقة ، ولنحترق من الأنانية ، ولنؤمن بوحدة الوجود ، ولنحقق لأنفسنا حياة مفسدة بالجهد والمقاومة ، أننا إذا فعلنا ذلك أدركنا معنى الحب ، وفهمنا حقيقة الحياة ، وشعرنا بالهدوء تفوح من خلال الثقة ، وبالسعادة تنبعث من نقعات الصبر والرجاء .